الفصل الثاني

ثورة الإصلاح وأثرها على عقيدة الثالوث في المسيحية ١٥١٧م

الفصل الثاني

ثورة الإصلاح وأثرها على عقيدة الثالوث في المسيحية ١٥١٧م:

ظلت الشعوب المسيحية ردحًا من الزمان تدين بالثالوث دون دليل أو برهان، ثم تبع ذلك تفشي الفساد الكنسي الذي أسلفنا له الذكر إلى أن تمخض الزمان بثورة إصلاحية عارمة، وذلك في أكتوبر ١٥١٧م، وكان من أبرز رجالها: مارتن لوثر الألماني، وزونجلي السويسري، وكلفن الفرنسي. وكان لفكرة الثورة هذه أثر واضح على عقيدة الثالوث في المسيحية.

١) مارتن لوثر الألماني(١٤٣٨-١٥٤٦م)وأعماله:

هو راهب كاثوليكي كشف سوء حال الكنيسة وانحراف رجالها عن جادة الصواب، فندد بعقائدها، وقام بتعليق نظرياته الخمس والتسعين على باب كاتدرائية فيتنبرج بألمانيا، وهي تنص على أن الناس سواسية في الأمور المتعلقة باللاهوت، وأن كل إنسان على ظهر الأرض مسؤول عن إنقاذ روحه، وله من كلمة الرب المسطرة في الكتاب المقدس ما يساعد على ذلك، وأن الإنسان يبرأ من الإثم بالإيمان وحده دون توسط من بابا أو غيره، (ثم حارب صكوك الغفران، ونظر إليها كوسائل للرق وللعبودية، وألقى الأضواء كما يقول الدكتور محمد البهي - على عقيدة التثليث)[١]. وكانت أقواله عن التثليث كما جاء في كتاب «حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر»: (على أنه تعبير يفتقد القوة[٢]، وأنه تعبير لم يوجد في الأسفار)[٣].

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٥٠، د. محمد البهي، ط ٩ مكتبة وهبة.

(٢) لقد بيّنا زيف النصوص التي يتخذها النصارى دليلاً على صحة الثالوث، خاصة في إنجيلي متّى ويوحنا، وذلك عندما تعرضنا لمنابع الثالوث في المسيحية في الفصل الثاني من الباب الثاني.

(٣) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ص ١١٥، مهندس أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة.

ثم حارب سلطة البابا، وجعل السلطة الوحيدة في المسيحية هي الكتاب المقدس وكلمة الله (النص)، ولم يقف البابا ليو العاشر مكتوف اليدين، بل استصدر حكمين ضد هذا الراهب: الحكم الأول: الحرمان من الحياة الأبدية. والحكم الثاني: الإعدام بالنار)[٤]. ولم يأبه لوثر بهذا القرار، بل عمد إلى الإنذار الذي أرسله إليه فحرقه في ميدان من أكبر ميادين المدينة، وسط جمع حاشد من الناس، وفي سنة ١٥٢٠م جمع البابا مجمعًا، وفيه قرر محاكمة لوثر فلم يذعن لوثر لهذا القرار أيضًا، (ولما حاول الإمبراطور سنة ١٩٢٩م أن ينفذ هذا القرار ثار أنصار لوثر واحتجوا على ذلك، ومن ثم سمي أتباع نحلته بالبروتستانت، أي المحتجين، وأخذ لوثر منذ ذلك الحين ينشر مبادئه المعارضة للكنيسة الكاثوليكية، والتي تكونت منها النحلة البروتستانية، كما أخذ الناس يدخلون في نحلته أفواجًا)[٥]، على حد تعبير الدكتور علي عبد الواحد وافي.

٢) زونجلي السويسري (١٤٨٤-١٥٣١م) وأعماله:

لقد ظهر هذا الرجل في العصر نفسه الذي ظهر فيه مارتن لوثر، ودعا إلى كثير مما دعا إليه لوثر في شؤون الدين، (وثار على صكوك الغفران وغيرها من مفاسد الكنيسة الكاثوليكية، وتبعه ناس كثيرون، لكنه مات قتيلاً أثناء صراع وقع بين أنصاره وأنصار الكنيسة الكاثوليكية، وكانت دعوته منفصلة عن دعوة لوثر، وإن اتفقت معها في مبادئها)[٦]

---

(٤) كتاب ـ محمد ﷺ ـ في التوراة والإنجيل والقرآن ص٢٠٨، إبراهيم خليل أحمد.
(٥) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص١٤٣، د. علي عبد الواحد وافي.
(٦) المصدر السابق ص١٤٣.

٣) كلفن الفرنسي (١٥٠٩-١٥٦٤م) وموقفة من الثالوث:

ولقد سلك كلفن طريقة لوثر في معارضة الكنيسة، واحتضن منهجه الذي يدعو إلى رفض سلطة البابوات على العقول، ثم أقر لوثر ـ كما يقول الدكتور البهي ـ (على أن الإنجيل وحده هو المصدر للحقيقة المسيحية دون تفسيراته وشروحه، وأوضح رأيه في عقيدة التثليث وفقًا للأصول المسيحية)[٧]. ويبدو أن هذه العقيدة كانت في نظر كلفن لا قيمة لها؛ ولذلك يذكر لنا فبلر فى كتابه «تاريخ الموحدين»: (أن كلفن قد أعلن أن قانون الإيمان الذي صدر عن مجمع نيقية كان يناسبه أن يُغنَى كأغنية بدلاً من أن يُحفظ كبيان عن العقيدة. لقد رفض كلفن قانون الإيمان الذي أصدره أثناسيوس وبدلاً من ذلك جعل قانون الرسل والوصايا العشر والصلاة الربانية أساس كتاب«خلاصة العقيدة»، الذي صدر في جنيف عام١٥٤١م، فمن النادر جدًا أن نجد ذكراً للثالوث في هذا الكتاب، ولو كانت لعقيدة الثالوث أهمية كبيرة لكان كلفن ركز عليها)[٨].

وبهذا نرى أن حركة لوثر وزونجلي وكلفن الإصلاحية عرّضت المسيحية للجدل حول الكثير من عقائدها، بعد أن كانت تلك العقائد مصونة من النقاش، حتى وإن احتوت على أخطاء واضحة فلا يصح لأحد أن يقترب إليها بعين النقد، ومن تسوّل له نفسه بذلك تنهار عليه قرارات الحرمان والطرد من الكنيسة، ثم الحكم عليه أيضاً بالكفر والفجور، بيد أن هؤلاء ضربوا بالكثير من قرارات الكنيسة عرض الحائط وتبعتهم حشود هائلة من المسيحيين الذين اكتووا بنار القساوسة قروناً من الزمان طويلة، ثم كونوا لأنفسهم مذهبًا خاصًا يطلق عليه «المذهب البروتستانتي»، وله

(٧)الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٢٥٠ . د. محمد البهي.
(٨) راجع طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص٣٥، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة.

أنشؤوا الكنيسة البروتستانتية، ثم أعلنت باسم رجالها أن الكتاب المقدس هو الحكم الفصل بينها وبين الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، ولهذا المذهب يدين الآن (معظم أهل ألمانيا والدنمارك والنرويج وهولندا وأمريكا الشمالية وسويسرا)[٩].

ويمكن تلخيص هذا المذهب في الأمور التالية:

أهم مبادئ المذهب البروتستانتي:

١) عدم أخذ الأحكام المتعلقة بالعقائد والشرائع والعبادات إلا من الكتاب المقدس وحده، على حين أن الكنائس الأخرى تستمد أحكامها من الكتاب المقدس، ومن قرارات المجامع، وآراء البابوات، ورؤساء الكنائس البرتستانية (الكنائس الإنجيلية) (لاعتمادها على الإنجيل خاصة، وعلى سائر أسفار الكتاب المقدس بوجه عام، بينما سميت الكنائس التقليدية لاعتمادها على التقاليد المستمدة من المجامع ومن آراء رؤساء الكنيسة، وجعلها لهؤلاء الرؤساء سلطان في تقرير حقائق العقائد والعبادات والشرائع)[١٠].

٢) لا تقر البرتستانية في مذهبها البابوية والرياسة العامة في شؤون الدين؛ ولذلك لا يوجد للكنائس البروتستانتية رئيس عام بل يعتبر البابا كبير المرشدين، وليس خليفة للسيد المسيح[١١].

٣) ينكر المذهب البروتستانتي كل الإنكار أن يكون لرجل الدين الحق في غفران الذنوب، سواء في حالة الاحتضار أو غيرها، وإنما جعل ذلك الحق لله وحده.

---

(٩) محاضرات في النصرانية ص١٨٥، الشيخ محمد أبو زهرة.
(١٠) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١٤٤، د. علي عبد الواحد.
(١١) يا أهل الكتاب تعالوا ص٢٧٠، د. رؤوف شلبي.

ويرى المؤرخون أن هذا المبدأ من أهم المبادئ التي قام من أجلها المذهب البروتستانتي، وبسببه ألغيت صكوك الغفران.

٤) ينكر المذنب البروتستانتي جميع ما تقيمه الكنائس الأخرى للسيدة مريم أم المسيح عليه السلام من طقوس واحتفالات وأعياد، ويعتبر البروتستانت ذلك خروجًا عن الدين.

٥) يقرر المذهب البروتستانتي أن العشاء الرباني تذكار لما قام به المسيح من فداء للخليقة، أما ما يقال من استحالته إلى دمٍ وجسدِ المسيح فهو خرافة.

٦) يعلن البروتستانت في مذهبهم أن كل مسيحي له الحق في فهم الكتاب المقدس عندهم دون الرجوع إلى رجل الكنيسة، ولا صلاة إلا بلغة مفهومة.

٧) تلغى البروتستانتية في مذهبها نظام الرهبنة، وهي لا تحرم الزواج على رجال الدين، كما تحرمه الكاثوليكية على جميع الرهبان والقسس بمختلف درجاتهم)[١٢].

٨) تحرم البروتستانية وضع الصور والتماثيل في أماكن العبادة واتجاه المصلين استناداً لما جاء في التوارة: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن؛ لأني أنا الرب إلهك إله غيور)[١٣] وهم يرون أن ما أمرت به التوارة يجب الأخذ به طالما أنه لم يرد عن المسيح ما يبطل التوراة.

---

(١٢) راجع في ذلك محاضرات في النصرانية ص ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، للشيخ محمد أبو زهرة، وكتاب الأسفار المقدسة ص ١٤٥، د. علي عبد الواحد وافي.

(١٣) سفر التثنية إصحاح ٥/ ٧، ٨، ٩.

تلك هي أهم مبادئ المذهب البروستاني والذى أعلن عقب ثورة الإصلاح سنة ١٥١٧م، ويرى الكثيرون من المؤرخين الغربين أن هؤلاء استمدوا أكثرية هذه المبادئ، وخاصة المبدأ الأخير مبدأ تحريم الصور من المسلمين، وفي هذا يقول . و. طمسون في كتابه «تاريخ العصور الوسطى»و. ج. أوستر جورسكي في كتابه «تاريخ الدولة البيزنطية» : (إن الحرب على الأيقونات أي الصور والتماثيل بدأت في الدولة الإسلامية عندما أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣م بإزالة جميع الأيقونات من الكنائس الواقعة داخل حدود الدولة العربية، ثم انتقلت الفكرة بعد ذلك إلى الدولة البيزنطية، فبدأ ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها سنة ٦٢٦م)[١٤].

وهذا القول قد يعنى أن البروتستانت قد اتصلوا بالمسلمين عن طريق الدولة البيزنطية فحسب، بيد أني أرى أنهم بعد ذلك قد اتصلوا بالمسلمين، واطلعوا على عقيدتهم، وذلك عن طريق الحروب الصليبية التي واكبت مطلع ثورتهم، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد تأثروا بنور الإسلام في هذه الجزئية بالذات أكثر من تأثرهم بكتابهم المقدس لديهم.

النقد الموجه لمذهب البروتستانت:

وإذا كنا قد علمنا سابقًا أن لوثر وكلفن قد ألقوا الضوء على عقيدة الثالوث، وبينوا أنها عقيدة خرافية لا أساس لها في الكتاب المقدس عندهم فإننا كنا نتوقع أن هذين الرجلين بجوار بقية المصلحين في عهدهم لابد أن يرفقوا في مذهبهم بندًا من خلاله نعلم موقفهم النهائي من عقيدة الثالوث، ويبدو أن ما قالوه شيء وما دوّنوه في مذهبهم شي آخر، حيث بدا هذا المذهب خاليًا من أي إشارة لأمر العقيدة، ولذلك بقيت البروتستانتية كغيرها من

(١٤) نقلاً عن كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ص٢٣٥، للأستاذ إبراهيم خليل أحمد، الذي كان قسّا فأسلم.

النِّحَل (تؤمن بالتثليث وألوهية المسيح وبنوته لله تعالى، وصلبه وقيامته. . . إلخ)[١٥]. وهذا الإيمان لا يتوافق ومنهجهم الذي ألزموا به أنفسهم أمام الناس. فهم قد التزموا في مطلع مذهبهم بالاحتكام إلى الكتاب المقدس، وعدم أخذ العقائد إلا منه، والباحث في هذا الكتاب لا يجد بين دفتيه نصًّا واحدًا يصرح بشرعية الثالوث، بل أكثر نصوصه ينبثق من بينها شعاع التوحيد[١٦]، وأيضا قد التزموا في مذهبهم بخلع سلطان الكنيسة والمجامع، علمًا بأن التاريخ يثبت أن هذه المجامع هي التي تسببت ـ كما ذكرنا سابقًا ـ في إخفاء عقيدة التوحيد التي دانت بها المسيحية قرابة ثلاثة قرون أو يزيد وإرساء عقيدة التثليث[١٧]، فلو كان هؤلاء جادين في مبادئهم هذه العقيدة التي قررها القساوسة سنة ٣٨١م في مجمع القسطنطينية، أو على الأقل كان عليهم أن يركنوا ولو قليلاً إلى دراسة القرارات المنبثقة عن هذه المجامع وينظروا في سندها فيما رأوه قويًا قبلوه، وما وجدوه ضعيفًا رفضوه. وبهذا يكونون قد ساروا في موكب الإصلاح إلى آخر مداه، كما يحتم عليهم منطقهم، أما وأنهم يقفون في منتصف الطريق، ويخالفون الكنيسة في أمور فرعية أعظمها تلك التي ضمها مذهبهم سالف الذكر، ثم يدينون بالثالوث المفروض على العقول فرضًا دون دليل أو برهان زاعمين بعد ذلك أنهم أحدثوا في المسيحية إصلاحًا من القمة إلى القاع، فإن هذا هو ما يرفضه منطقهم الذي ألزموا به أنفسهم ويرفضه واقع الكنيسة ورجالها.

أثر هذه الحركة الإصلاحية على الثالوث في المسيحية:

وإذا كان هؤلاء المصلحون عندهم لم يتعرضوا للثالوث في مذهبهم،

---

(١٥) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١٤٣، د. علي عبد الواحد وافي

(١٦) راجع في ذلك الفصل الثاني من الباب الأول. (١٧) راجع الفصل الأول من الباب الثاني.

ولم يسايروا موكب الإصلاح إلى آخر مداه. فإننا لا ننكر أن حركتهم هذه قد تمخضت بالفعل بعد ذلك عن آثار إيجابية أحدثت فيما بعد ضجة ضد الثالوث الكنسي أعقبه ظهور طوائف الموحدين مرة أخرى على الساحة المسيحية، ومن أهم هذه الآثار ما يلي:

١ـ بروز محاولات فلسفية لتحرير العقل من وطأة الثالوث:

حيث تحرك الكثيرون من الفلاسفة والعلماء في المسيحية حاملين على عاتقهم مواصلة السير في موكب الإصلاح، وبصحبتهم منهج الثورة الإصلاحية ـ عندهم ـ المتمثل في أحقية كل مسيحي في فهم الكتاب المقدس دون تدخل من أحد البابوات أو القساوسة، وباسم هذا المنهج أخذوا في تحرير العقول من الأدران الكنسية، ومن وطأة الثالوث الجاثي قرابة ألف عام أو يزيد، وكان مطلع هذه المحاولات عقب الثورة الإصلاحية، وعلى وجه التحديد في القرن السابع عشر الميلادي، حيث قام جماعة من المفكرين وعلى رأسهم سبينوز[١٨] Spinoz وليبنتز[١٩] Leibntis ولوك[٢٠] Locke بمحاولة تقريب بين الطوائف المسيحية المختلفة على أساس من التعاليم الأصلية للمسيحية، وابتدعوا لهذه المحاولة ما أسموه بنظام العقيدة، وكتبوا خطابات ثلاثة عن التسامح، وعبّروا عن هذا التسامح في الكلمة المعروفة «كنيسة حرة»، في دولة حرة ـ ثم تحولت هذه المحاولة من الوجهة النظرية عند الفلاسفة الثلاثة إلى القيام بتعليل عقلي لمسيحية عامة صافيه، وأطلقوا على هذا التعليل (دين الطبيعة) أو (دين العقل)[٢١]. وهو إطلاق بلا شك غاشم ولا يصح أن يطلق على أديان تنسب إلى السماء، ولا أجدني في حاجة إلى مناقشته حتى لا نخرج عن طي الموضوع.

(١٨) عاش بين سنتي ١٦٣١ ـ ١٧٧٧م. (١٩) عاش بين سنتي ١٦٤٦ ـ ١٧١٦م.
(٢٠) عاش بين سنتي ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م.
(٢١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٤٦، د. محمد البهي.

أساس هذا الدين عندهم:

جعل هؤلاء الفلاسفة أساس هذا الدين عندهم الإيمان الكامل، وعرفوا الوحي ـ كما يقول الدكتور البهي ـ (بأنه ما كان فوق العقل البشري، لكنه ينسجم مع العقل، أي أن الذي يعتبر وحيا هو ما لا يستطيع العقل أن يجده من نفسه، ولكن مع ذلك يمكن له أن يفهمه في وفاق وانسجام مع تفكيره الصحيح)[٢٢]. وأقوال الفلاسفة هنا ليس المقصود منها نقض الإيمان في حد ذاته، إنما القصد هو نقض ما طرأ عليه، وهم بهذا كانوا يهدفون بلا شك إلى تحرير العقول من العقائد اللامفهومة وإثبات كرامتها التي أهدرتها الكنيسة عبر القرون بحجة أن العقل لا يستطيع فهم ما جاء به الوحي عندهم ، ومن ثم فلا يمكن له فهم الثالوث، ولا يحق له مجرد التفكير فيه.

٢- اقتراب الفلاسفة من مذهب الموحدين:

ولما كان الموحدون قديمًا يرون أن الوحي لا يأتي بعقائد تضاد العقل، وأن عقيدة السماء بسيطة وواضحة فإن هؤلاء الفلاسفة بمحاولاتهم الدائبة لتحرير العقل من وطأة العقيدة المثلثة الطارئة على المسيحية اقتربوا بلا شك من مذهب الموحدين، بل أنكروا بكل صراحة ما أنكر الموحدون، ومن هؤلاء جماعات السوسنيين [٢٣] Socinienes، (حيث أكدوا وجود الوحي ولكنهم عبروا أنه ما ليس بوحي هو ما لا يستطيع العقل أن يفهمه، وتطبيقًا لهذا اعتبروا ما جاء في العقيدة المسيحية من التثليث ومن جعل المسيح إلها إنسانيًا في وقت واحد غير وحي، ثم رأوا أن ما أوحى به الله له طابع القانون ويجب العمل به، والدين لا يبقي في حيز الفكرة النظرية، بل هو

(٢٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٢٤٦، د . محمد البهي.
(٢٣) هم أتباع الفيلسوف الإيطالي Socin في القرن السادس عشر (١٥٢٥ ـ ١٥٦٢ م) وقد كان ضد الكثلكة .

خضوع تام للقانون الإلهي)[٢٤].

وهم بهذا يريدون أن يقولوا إن الدين لابد أن يكون سلوكًا وعملاً طبقًا لهذا القانون ، ولكن ليس كل دين ، بل الدين الذي لا يجد العقل في فهمه عسرًا ، أما الدين الذي لا يُفهم فهو بلا شك قائم على أغراض شخصية ولاصلة له بالوحي الإلهي ، وهذا هو ما ينطبق على الدين المسيحي المتمثل في الثالوث ، ومن ثم فلا يصح الخضوع له أو حتى الاعتراف بشريعته .ثم جاء بعد هؤلاء هيجل Hegei في القرن التاسع عشر ، وأقام فلسفة خاصة به[٢٥] ، على أساس ما أسماه (بالفكرة) ... ووصل بهذه الفلسفة الخاصة إلى وحدانية الله تعالى ، وبذلك أغضب الكنيسة الكاثوليكية بإنكار التثليث في الألوهية ، وعلى غرار هيجل قام شلينج Schlling بعمل فلسفي سمي بالفلسفة البنائية ، و هي فلسفة تهدف إلى إقرار مذهب الوحدة في الألوهية[٢٦] ، وبهذا يتبين لنا أن دفاع الفلاسفة عن العقل ومحاولتهم إصلاح حال الكنيسة من العقائد اللامعقولة عقب ثورة تيقظ الإنسان من خلالها إلى قيمة نفسه قد جعلهم ـ سواء بقصد منها أو بدون قصد ـ يحاربون الثالوث وعقيدة ألوهية المسيح ، والاعتقاد بعصمة البابا أو بسلطانه الزمني ، وغير ذلك من الأمور التي لا تستقيم مع العقل

(٢٤) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٢٤٦، ٢٤٧ ، د. محمد البهي .

(٢٥) لقد لعبت فلسفة هيجل هذه دورًا بارزًا في تكوين النظرية الماركسية حيث تأثر بها ماركس ، وخاصة مبدأ النقيض منها ، القائل : لكل فكرة فكرةٌ تقابلها ، ومن صراع الفكرتين تتكون الفكرة الثالثة هي الجامع لهما ، ثم ينطبق عليها ما انطبق على الأولى ، وهكذا دواليك ليستمر الدفع والتقدم ، والقصد من ذلك عند هيجل هو إثبات الفكرة والوحي . أما ماركس فإن مذهبه لا يتركز على الفكرة ، بل على المادة ، فهي عنده الثابتة الأزلية ، والفكرة عنها تولدت . ومع ذلك فقد أفرغ مذهب هيجل في هذا الإطار ، علمًا بأنه لا ينطبق عليها ، بل على الفكرة فحسب . (راجع في ذلك الماركسية بين الدين والعلم من ص ٤٠ إلى ص ٤٦) جميل محمد أبو العلا . مطبعة الأمانة .

(٢٦) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٤٧ ، د. محمد البهي .

الإنساني الواضح، وهذا كله يتوافق ومذهب الموحدين قديمًا، ومن ثم حق لهذا المذهب أن يرى النور مرة أخرى، فظهرت عقب ثورة الإصلاح طوائف تدعوا باسمه تسمى «طوائف الموحدين».

٣- طوائف الموحدين [٢٧] في المسيحية عقب ثورة الإصلاح:

لقد ظهر هؤلاء الموحدون مرة أخرى ليجاروا موكب الإصلاح في المسيحية، ويعلنوا مذهبهم بكل صراحة بعد أن خضعت الشعوب المسيحية للثالوث قرونًا طويلةً تحت نير الكنيسة. ومعلوم أن التوحيد هو الذي كان المعتقد الأساسي ـ كما ذكرنا سابقًا [٢٨] ـ مدة لا تقل عن ثلاثة قرون متتالية أو يزيد، أما التثليث فهو المعتقد الطارئ عليه. ومن المغالطة الواضحة في هذا الصدد ما ذكرته دائرة المعارف الأمريكية حين قالت: (تظهر بداية التوحيد كعقيدة محددة بعد نصف قرن من الإصلاح الديني البروتستانتي)[٢٩]؛ لأن الذي يفهم من هذا النص أن التوحيد لم يظهر كعقيدة رسمية في المسيحية إلا بعد نصف قرن من قيام ثورة الإصلاح، وهو خلاف الواقع الذي أسلفنا له الذكر، وبيّناه من خلال دراستنا في المجامع. بالإضافة إلى أن هذا المفهوم يوقع دائرة المعارف الأمريكية في التناقض مع نفسها حيث ورد عنها ما نصه: (لقد بدأت عقيدة التوحيد ـ كحركة لاهوتيه ـ بدايةً مبكرةً جدًا في التاريخ، وفي حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين) [٣٠]. ويبدو أن الذي دعاها إلى التصريح بالنص الذي أدى بها إلى التناقض هو كثرة طوائف الموحدين

(٢٧) كلمة الموحدين اصطلاح تاريخي أطلقه المؤرخون على كل من يتبع معتقد أريوس قديمًا، وينكر ما تراه فرق النصارى الأخرى القائلة بالتثليث والتأليه والتجسد والصلب.. إلخ.

(٢٨) راجع الفصل الثاني من الباب الأول.

(٢٩) طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص٢٤، مهندس أحمد عبد الوهاب.

(٣٠) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامة في المسيحية ص، أحمد عبد الوهاب.

عقب ثورة الإصلاح، الأمر الذي جعلها تتوهم أن التوحيد لم يكن له وجود متكامل إلا في هذه الآونة، ونحن إذ نسلّم لها بأن الموحدين كانوا بالفعل ذا عدد غفير عقب ثورة الإصلاح، إلا أننا لا نسلّم بأن التوحيد لم يظهر كعقيدة رئيسة في المسيحية إلا عقب هذه الثورة، والواقع التاريخي يشهد بذلك.

المبادئ العامة التي يقوم عليها الفكر التوحيدي في المسيحية:

ونظراً للحركة الدائبة التي قام بها الموحدون لتطهير المسيحية من عقيدة الثالوث، فقد أعلن هؤلاء بأنفسهم مبادئ عامة تنير لفكرهم الطريق، وهذه هي أهم مبادئهم، كما جاء ذكرها في دائرة المعارف الأمريكية:

١) ـ(إن عقيدة التوحيد سوف لا تقبل أي معتقد لمجرد أنه مقدس، إنها تبجّل فكر يسوع الناصري، وتعترف بعظمة حكمته، لكنها تنكر أن يسوع كان معصومًا من الخطأ)[٣١].

وأرى هنا أن عجز هذا المبدأ قد أخطأ فيه الموحدون؛ لأنهم إن لم يؤمنوا بكون المسيح إلهًا فهو عندهم بلا شك نبي ورسول، والنبي و الرسول لابد أن يكون معصومًا وهم لا يرون ذلك.

٢) ـ إن كنيسة الموحدين تعتبر الكتاب المقدس تسجيلاً قيّما للخبرات الإنسانية، وهي تصرّ على أن كاتبيها كانوا معرضين للخطأ؛ ولهذا السبب فإن أغلب الأجزاء الرئيسة للمعتقدات المسيحية قد رُفضت.

٣) ـ إن الموحدين يعتقدون أن العقيدة الدينية مليئة بالحركة، وأنها وسيلة للتعامل مع المسائل التي تختص بالوجود الإنساني كله... فالتعليم اللاهوتي الذي لا يمس الحياة في أي نقطة يفتقد قيمته الدينية.

(٣١) انظر طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص ٣٧، أحمد عبد الوهاب.

٤) إن الفرق التاريخي بين التوحيد والتثليث يأتي من حقيقة أن الموحدين طالما كانوا يؤمنون بوجود إله واحد فإنهم يعتقدون أن الله سبحانه إله واحد بدلاً من ثلاثة أقانيم، ولذلك قال شانينج ١٨١٩م ـ أحد زعماء الموحدين ـ : إن الثلاثة أقانيم تتطلب ثلاثة جواهر، وبالتالي ثلاثة آلهة . . . ثم قال : إن نظام الكون يتطلب مصدراً واحداً للشرح والتعليل لا ثلاثة ؛ لذلك فإن عقيدة التثليث تفتقد أي قيمة دينية أو علمية .

٥) . . . إن الكتاب المقدس لم يقل بالثالوث، كما أن يسوع في نفسه كزعيم ديني هو المسيا، وليس كإله، وبالمثل اعتقد التلاميذ أن يسوع مجرد إنسان . ثم عللوا لهذا المبدأ قائلين : إذا كان عند أي من بطرس أو يهوذا[٣٢] أي فكرة عن أن يسوع إله لَمَا كان هناك أي تفسير معقول لإنكار بطرس ليسوع ـ حسبما تذكره الأناجيل بعد القبض عليه والذهاب به إلى بيت رئيس الكهنة ـ وما كان هنالك تبرير لخيانة يهوذا ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن ينكر أو يخون كائنًا إلهيًا له كل القوة .

٦) إن الحقيقة المزعومة بأن يسوع مات من أجل خطايانا، وبهذا وقانا لعنة الله مرفوضة قطعًا ؛ لأن الله يجب ألا يعرف عن طريق اللعنة، بل عن طريق الحلم والمحبة . إن الموت الدموي على الصليب من أجل إطفاء لعنة الله الإله لهو أمر مناقض للحلم الإلهي والصبر و الود و المحبة التي لا نهاية لها .

---

(٣٢) بطرس ذكرته الأناجيل بأنه كبير الحواريين . أما يهوذا فهو يهوذا الإسخريوطي، جاء ذكره في الأناجيل بأنه قبض رشوة ثلاثين درهمًا من الفضة، وبسببه قُبض على المسيح وقُتل وصُلب . وبما أن قضية الصلب تحتاج إلى بحث منفرد في رسالة خاصة إلا أننا نقول : إن القرآن الكريم أثبت أن هناك حادث صلب قد وقع فعلاً، ولكن ليسَ للمسيحِ عليه السلام ومن ثم فالقول بصلبه قولٌ باطل . قال جل شأنه : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ .سورة النساء آية ١٥٧ .

٧) إن يسوع لو كان إلهًا فإن المثل الذي ضربه لنا بعيشته الفاضلة [٣٣] يفقد كل ذرة من القيمة حيث يمتلك قوى لا نملكها ، والإنسان لا يستطيع تقليد الإله[٣٤].

هذه هي أهم مبادئ الفكر التوحيدي في المسيحية، وعلى هديها انطلق الموحدون في إصلاح مسار المسيحية، وتصحيح الانحراف الذي حدث لها، وإذا كانت الآريوسية قديمًا لم يكتب لها النصر النهائي على المستوى الرسمي للدولة فإن ظهور هؤلاء الموحدين عقب ثورة الإصلاح بهذه المبادئ يدل على أن جهودها لم تذهب سدى، بل بقيت لها جذور قوية تنبت بين الحين والحين وتثمر، وقد تمثل هذا في (الحركات التوحيدية) و(الحركات المعادية للتثليث)، التي استمرت على مر العصور، واستطاعت أن تقيم (طائفة الموحدين)، وهم مسيحيون من مختلف الشعوب والثقافات، وأصبح لهم كنائسهم المنتشرة في أوروبا و أمريكا ، ولكي نعرف إلى أي مدى ساهم فكر هذه الثورة في مساندة الموحدين ومحاربة عقيدة الثالوث سنعطي فكرة سريعة عن بعض أنشطتهم في بلاد أوروبا و أمريكا عقب ثورة الإصلاح حتى العصر الحديث .

أ) الموحدون في بولندا :

وهذا هو ما جاء في كتاب «طائفة الموحدين» نقلاً عن دائرة المعارف الأمريكية التي قالت : (ما إن حل منتصف القرن السادس عشر حتى كان أكثر من ٢٠٠٠ كنيسة كاثوليكية قد تحولت إلى البروتستانتية، ثم جاءت (الحركات المعادية للتثليث) لتسلك سبلها إلى الكنائس الإصلاحية .

(٣٣) هذه الأمثلة مبثوثة بإطناب في الأناجيل الأربعة على لسان المسيح عليه السلام .
(٣٤) راجع في ذلك كتاب طائفة الموحدين ص٣٧، و كتاب اختلافات في تراجم الكتاب المقدس ص١١١، للمهندس أحمد عبد الوهاب .

وهنا نذكر الطبيب والعالم المشهور الدكتور جيورجيو بندراتا الذي كان مدرسًا في جامعة مونتبلية . . . حتى تشبع بمبادئ الحركة المعادية للتثليث في بولندا (حركة الموحدين)، ثم ما لبث أن أصبح رئيسًا لها عن جدارة في عام ١٥٥٨م، ثم تقول : لقد تمت هذه الحركة وقويت لدرجة أنه عندما عقد مجمع بنزوا سنة ١٥٦٢م كان الليبراليون أغلبية، وكان القسس يتكلمون عن التثليث فقط بالعبارات التي تسمح بها الكتب . . . ويعتبر الإعلان الذي صدر عام ١٦٠٥م واحدًا من أهم المطبوعات التي أنتجها جماعة الليبراليين البولنديين ـ تعني جماعة الموحدين ـ فهي تقول : بأن الله واحد في ذاته، وأن المسيح إنسان حقيقي، ولكنه ليس مجرد إنسان ، وأن الروح القدس أقنومًا لكنه قدرة الله، ثم حصل الرد الكاثوليكي على هذه الحركة، وصدر مرسوم سنة ١٦٥٨م طرد بمقتضاه جماعة موحدة في عام ١٧٣٦م وكانت كل الحقوق السياسية قد سحبت (من غير الكاثوليك)، ونفيت بعض الجماعات الموحدة خارج البلاد)[٣٥] . ولا أرى أن فكر هؤلاء الموحدين سيكون في معزل من سكان البلاد التي نزحوا إليها ؛ لأنه فكر بسيط لا التواء فيه .

ب) الموحدون في المجر وترانسلفانيا:

وتقول دائرة المعارف الأمريكية : (إن الروح الاستقلالية للمجريين مع الظرف الخاص بالمجر، وهو أنها كانت قد ابتعدت عن روما، كل ذلك أدى إلى فقدان سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، ولقد أذيع ثلاث مرات مرسوم بالتسامح الديني في أعوام ١٥٥٧م ، ١٥٦٣م، ١٥٦٨م، ووصل الأمر بالموحدين إلى أن كانت المجر تحت حكم ملك موحد هو جون سيجسموند

(٣٥) طائفة الموحدين من المسيحيين ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٥٤٠ - ١٥٧١م) وفي تراسلفانيا حيث ازدهر التوحيد ثانيةً نجد ذلك يرجع إلى التأثير الإيطالي. ومن الشخصيات الهامة هنا فرانسيس داود، فقد ولد عام ١٥١٠م، في كولوسفار عاصمة ترانسلفانيام، ورغم أنه كاثوليكي فقد قبل عقائد الإصلاح الديني، وأصبح بدوره لوثريا ثم كالفينا، وأخيراً في عام ١٥٦٦م أصبح موحداً لكن تأثير دواد هذا قوضه من الأساس وفاة الملك جون سيجموند، إذ خلفه ستيفن باثوري الكاثوليكي، ورغم أنه كان حاكمًا عادلاً إلا أنه كان معاديًا للإصلاح الديني، حيث منع الموحدين من نشر كتبهم دون إذن منه، الأمر الذي آذى حركتهم تمامًا، ومع ذلك فقد استمر داود في جهودهً، وكان يعارض بشدة عبادة المسيح. وفي العشرينات من القرن التاسع عشر أقيمت العلاقات مع (الموحدين البريطانيين) الذين قدموا إعانات مالية ساعدت على الإبقاء على مدارس الموحدين)[٣٦].

وبهذا يتبين لنا أن الموحدين رغم تدخل الملك ستيفن باثوري في وقف حركتهم إلا أنهم مازالوا يناضلون حتى القرن التاسع عشر، حيث ازدهرت مدارسهم في ربوع ترانسلفانيا.

ج) الموحدون في هولندا:

لقد ازدهرت المطابع في هولندا عقب ثورة الإصلاح، وكان لهذه المطابع أثر هام في نشر الفكر التوحيدي بين الهولنديين، (حيث طبعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر كتب ورسائل عديدة تعبر عن وجهات النظر التحريرية، ما كان أحد ليجرؤ على نشرها خارج هولندا، وقرب منتصف القرن التاسع عشر صارت ليدن بالتحديد وخاصة جامعتها مركز الدعوة للحرية الدينية في هولندا، لقد صارت مركزاً للتوحيد، كما أنها

(٣٦) المصدر السابق ص ٤٢، ٤٣، ٤٤.

كانت متحررة تمامًا في نقد الكتاب المقدس)[٣٧] .

ويبدو هنا ارتقاء حركة التوحيد في هولندا المسيحية حيث لم يقتصر في نشر فكرها على المدارس الصغيرة ـ كما علمنا في تراسلفانيا ـ بل تعدت ذلك ووصلت إلى الجامعات، وأصبحت جامعة ليدن ـ وهي من أكبر الجامعات في هولندا ـ تساعد على بث الفكر التوحيدي في شتى البقاع المسيحية، مما يدل على مدى تعطش المسيحيين لهذا الفكر .

د) الموحدون في إنجلترا:

وفي إنجلترا انتشر الفكر التوحيدي انتشاراً سريعًا عقب ثورة الإصلاح، وخاصة بين المفكرين الإنجليز، وبسببهم (يوجد في إنجلترا في الوقت الحالي من (٣٥٠ - ٤٠٠) كنيسة موحدة بعضها في الممتلكات البريطانية المستقلة (سابقًا) . وتوجد مدرستان لتعليم التوحيد هما كلية مانشستر بأوكسفورد، وكلية التوحيد بمانشستر)[٣٨] .

هـ) الموحدون في الولايات المتحدة الأمريكية:

وفي أمريكا بولاياتها المختلفة تجول الفكر التوحيدي بمبادئه السهلة، (وكانت عقيدة التوحيد موفقة في اجتذاب بعض القادة المهمين لجانبها، مثل وليم الري شانتج (١٧٨٠ -١٨٤٢م) راعي الكنيسة في بوسطن، حيث كانت موعظته عن مسيحية التوحيد التي وعظها في مايو ١٨١٩ تُعد واحدة من أعظم الوثائق الدينية التي كتبت في أمريكا . هذا وترتكز أغلب كنائس الموحدين في ولاية نيوانجلند، حيث تبلغ طبقًا للإحصائيات الأخيرة ٣٧٠ كنيسة)[٣٩] كلها تحارب الثالوث بجوار كنائس

(٣٧) المصدر السابق ص ٤٦ .
(٣٨) المصدر السابق ص ٥١ .
(٣٩) المصدر السابق ص ٥٢ ، ٥٣ .

أخرى منتشرة في فرنسا وبلجيكا والدنمرك وسويسرا وغيرها من البلاد الأوربية والأمريكية.

تعقيب

وبعـــد:

فهذه نبذه سريعة عن نشاط الموحدين في شتي البقاع المسيحية عقب ثورة الإصلاح، وهي إن دلت فإنها تدل بلا شك على الأمور التالية:

أولاً: إن هذه الثورة كانت بمثابة الانفتاح لعهد جديد من الحرية الدينية، وعلى أثرها توقفت سلطة الحكام، وامتنعت سياط الكنيسة التي كانت تهوي على كل رأس يفكر في مدى صحة عقائدها، ومن ثم تحرر العقل من وطأة الكنيسة ورجالها ولو قليلاً.

ثانيًا: وعلى ضوء هذا التحرر ظهرت عقيدة التوحيد مرة أخرى في ربوع المسيحية، وازدهرت على يد المفكرين والعلماء، وأنشأت لها الكنائس والمدارس في البلاد، بل وتخصصت لنشرها الجامعات، وهذا كله سيؤدي بلا شك إلى انكماش الثالوث، إن لم يكن اليوم فغدًا وإن غدًا لناظره قريب.

ثالثًا: إن هذا الازدهار لعقيدة التوحيد عقب هذه الثورة يؤكد تأكيدًا لا ريب فيه بأن المسيحية، الأصلية قامت على التوحيد، أما التثليث فهو عضو غريب عن جسدها، وبقوة السلطات التصق بها حتى صار هو الصورة التقليدية التي تعرف به.

رابعًا: إن المعتقدات الكنيسية التي جلبها الثالوث الوثني إلى المسيحية معتقدات فاسدة كفساد الثالوث، وستظل تحارب إلى يوم الدين، ورائحتها العفنة هي التي ساعدت في انفصال أعداد وفيرة من المسيحيين عن الكنيسة

الكاثوليكية وانضمامهم إلى الموحدين بغية الإصلاح والعودة بالكنيسة إلى معتقدها الأول، وإثر ذلك أخذت تعلو صرخات الكنيسة الكاثوليكية قائلة لرعاياها: (إن العمل المسكوني يحتم على مؤمني الكنيسة الكاثوليكية أن يهتموا بدون تردد اهتمامًا أكبر بإخوانهم المنفصلين عنهم، وأن يُصلّوا من أجلهم، وأن يتحدثوا معهم عما يتعلق بشؤونهم الكنسية بحيث تكون حياتهم شاهدًا أكثر أمانة ووضوح للعقيدة والأنظمة التي نقلها الرسل عن المسيح)[٤٠]، إلا أن هذه الصرخات ذهبت هباءً منثورًا في الهواء ، وما ذاك إلا لأن المسيحية المتمثلة في الثالوث سواء أكانت كاثوليكية أم غيرها لا يمكن أن تساير روح التقدم الفكري والمادي؛ لأنها عقيدة جامدة غير مفهومة، ومهما رقت بالفكر وتوالى عليها الإصلاح فإن شبح التأخر والوثنية سيظل يطل برأسه من ثوبها المرقع الذي أخنى عليه الدهر ، ولهذا الأمر تنبأ أحد علماء البروتستانت بموت المسيحية ودفنها في القرن العشرين حين قال ما نصه مترجمًا:

(إذا كان الدين المسيحي ليس شيئًا سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الروماني) ، أو الكثلكة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتي) فالقرن الموفي للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيًا أبدًا)[٤١]، فهل يا ترى سيعود فيه المسيحيون عن الثالوث حقًا، ويسيرون في طريق التوحيد حتى يصلوا إلى الإسلام دين التوحيد الخالص عن كل شائبة أم لا؟

إن إجابة هذا السؤال هي موضوع الفصل الثالث إن شاء الله .

---

(٤٠) النشرة الثانية للفاتيكان مكتبة دير الآباء الدومينكان.

(٤١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة ص ١٤٧ الشيخ محمد عبده عيسي الباب الحلبي.